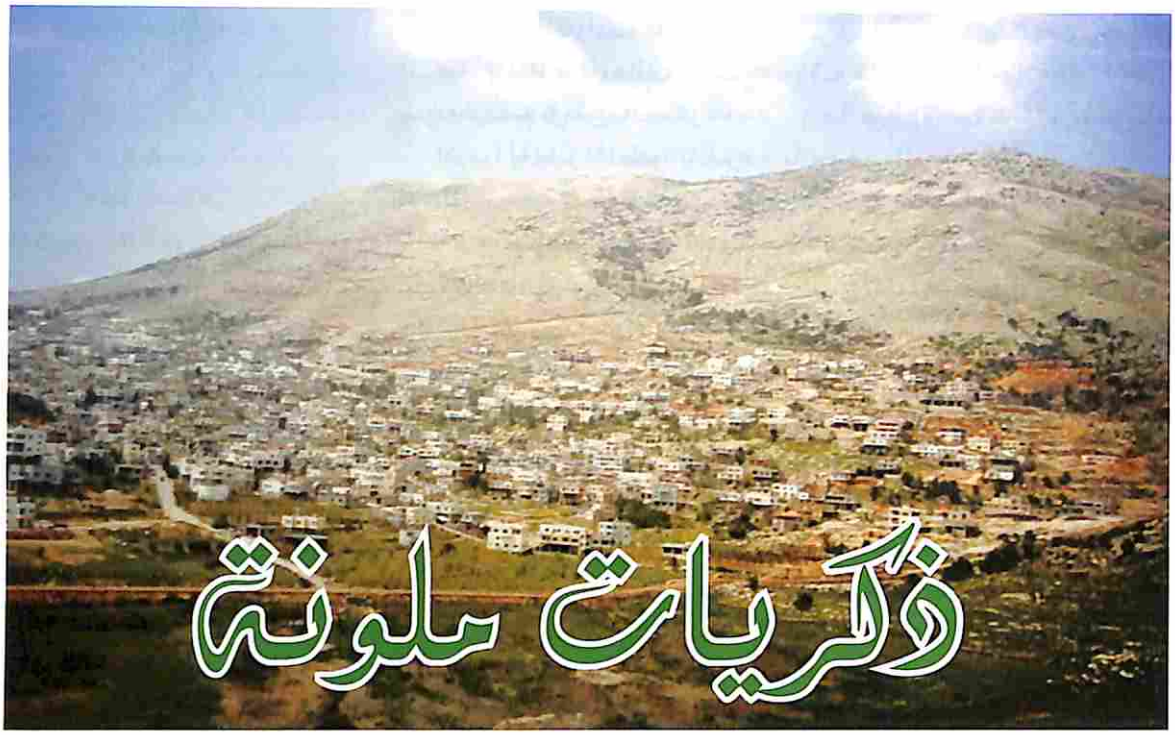

ذكريات ملونة

في تلك المنطقة النائية، أفرغت الشاحنات حمولتها، من المخلوقات الآدمية.. غربة تثقل الروح، وقلق يرسم على الوجوه ظلالا من الوجوم والكآبة.

تساؤلاتنا الكثيرة.. رد عليها قائد القافلة، بعبارات مقتضبة ولهجة صارمة :

«أنتم الآن في خربة الضباع، وفي هذه البقعة ستؤدون دورتكم التدريبية، عليكم التقيد بالنظام والانضباط، وكل مخالفة من أحدكم تستدعي معاقبة الدورة، فالرحمة هنا مخصصة والبلاء عام».

انطلق بنا إلى (برّاكة) قريبة، وزع علينا عددا من الأغطية وقصعات الطعام، والخيم الجماعية.

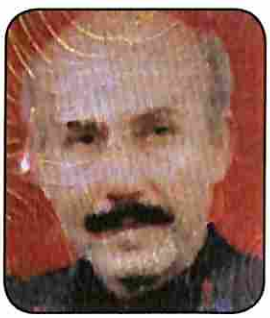

عبدالرزاق شحرور - سورية

وكانت تلك بداية عهدنا بقائد دورتنا المعاون، معطوف العساف.

الساعات التي قضيناها على ظهر الشاحنات، كانت كفيلة بإشاعة نوع من التقارب بيننا، سهل علينا تحديد خيمتنا.. أودعنا فيها أمتعتنا، وانطلقنا نرتقي ذلك التل المتهدم، عبر أعشابه الكثيفة، وأحجاره المتناثرة. تراءت لنا المنطقة من فوقه، بأبعادها المترامية، يلفها السراب، وشبح الاحتلال.

العسكري الذي يحمل المنظار، كان هو العنصر الوحيد الذي التقيناه.

رحب بنا معرفا نفسه: الراصد مصطفى عبدالعال.

وانهالت عليه الأسئلة، أجاب عليها بلباقة ورحابة صدر. عرفنا على جغرافية المكان، مكننا من رؤية خط الجبهة عبر منظاره.

أماكن لم نكن نعرفها إلا بالاسم..

جبل الشيخ تغطي ذؤابته الثلوج - مرتفعات الجولان - يتصدرها تل الفرس الرابض على أحزانه بصمت تقبع في أحضانه مستعمرة الرميد.

صرخة مباغتة ندت عن حامد، جعلتنا نلتفت نحوه باستغراب، لنلمح أفعى كبيرة، تتلوى أمامه وتمرق متوارية بين الأحجار.

ضحك مصطفى مبديا عدم اهتمام: غدا تتعودون على مثل هذه المشاهد، فالخربة تعج بالأفاعي والضباع والذئاب.. و.. حملق به فرحان مأخوذا بما يسمع: (شو هالوقعة اللعينة) ؟! العدو فهمناه. ولكن ضباع وأفاع أيضا!!

وثارت من حوله الضحكات..

الدقائق التي قضيناها مع الراصد مصطفى تحولت إلى صداقة حقيقية.. توجها بدعوته لنا لتناول وجبة من أفاعيه المشوية يوم الجمعة المقبل، مؤكدا أنها تضاهي لحم السمك..

الدورة تبدأ بطيئة متثاقلة.. ضريبة المواطنة، تأخذ أبعادا قاسية، فالنهار جهد ومشقة، وشمس محرقة تلوح الوجوه والأبدان، والليل قلق وسهاد، اجترار للهموم والذكريات، الإحساس بالبعد والاغتراب يؤجج الشوق والحنين.. والعواطف الملتهبة تسيل كلمات على الورق، يحملها البريد للأهل والأصدقاء.

أحلامنا المتفائلة بالإجازة تحولت إلى رغبة عارمة، تطرق أبواب الذاكرة بإلحاح.. يرد عليها «المعطوب» بوقفته المتجهمة، ونظرته الصارمة كعادته حينما يود فرض هيبته، وتأكيد سيطرته علينا.. ثم يفغر فمه على مداه، فتظهر أسنانه الصدئة، وأضراسه المهترئة، المذهبة والمقلوعة، صائحا بأعلى صوته ليسمع كل من بالمعسكر:

افهموا يا بشر، اسمعوا ياناس، الإجازات منحة تعطى لكم وليست حقا من حقوقكم!! تهوي كلماته علينا كالصاعقة، وتتلاشى أحلامنا كالسراب...

«ألا خيبة الله عليك من رجل نكد، تعقد المسائل المحلولة».

شعور مؤلم بالوحشة، وحنين إلى الأهل لا يقاوم، يلون الذكريات بطعم الأسى، ويوقع في الروح خرابا لا ترممه السنون.. يجعلنا نغبط تلك الحيوانات التي تجوب المنطقة من حولنا على هواها.

أيام كثيرة مضت، كانت كفيلة بأن تنسيني بعض ملامح زوجتي وطفلي، تلهب في داخلي حقول الشوق واللهفة.. أبحث في ثنايا الذاكرة عن ملامحهما المفقودة.

«يـــااه.. كم اشتقت إليك يا عبودة..».

يحاول فرحان التخفيف عني ممازحا: خبيث.. اعترف بصراحة، شوقك لعبود أم لأمه؟

وتعلو الضحكات، تبدد سحب الكآبة عن نفوسنا، تزيدنا مودة وألفة..

وأخيرا حل اليوم الموعود، يوم وقفة عيد الفطر، الخيمة تشهد تحركا لم تعرفه من قبل. والإجازة أضحت حقيقة، وكل واحد منا يعد نفسه لمغادرة المعسكر. لم يبق ما أقوم به سوى تلميع الحذاء، وفرحان مأخوذ بنشوة الإجازة، وذقنه ما زالت بلا حلاقة.

ما هي إلا ساعات و.. «وينك يا حمص»!!

أجبته متعمدا إثارته:

أخشى أن تتحول الإجازة إلى حرمان بسبب «بوطي» وذقنك.

ضحك الجميع لتلك المقارنة.. وأطلق ناجي ضحكة مجلجلة جعلت فرحان يحملق بي مغتاظا:

«ولك ما بتعدي عن بذاءة هاللسان! ما يكفي إنك أصلع وكمان بدك تحكي!!»

ثم التفت إلى ناجي يسأله باستهزاء:

وأنـــت.. مبسوط «فرحت بعزا ستك» ولك جسمك تعود «عالبهدلة؟»

لماذا تقول هذا.. كلهم ضحكوا! يعني أنا غير شكل..

نعم أنت غير شكل، لأنك الوحيد الذي ضحك كا...

يقتحم علينا الراصد مصطفى الخيمة، وبيده زوج من الأفاعي الكبيرة، متعمدا إثارتنا واللعب بأعصابنا..

يا شباب.. فطوركم عندي صباح يوم العيد.

يهتف به ناجي محتدا «فال الله ولا فالك».. «يخرب ذوقك» أمي مريضة، وإذا لم أكن عندها بالعيد، ربما تحصل مصيبة لا قدر الله.

يجيبه سمعان:

بل المصيبة ستحل بي أنا، إن لم أكن عند مادلين يوم العيد.

يهيج حامد كعادته.. ويثب واقفا:

«عليَّ الطلاق أنا رايح اليوم عالبلد، إن كان بإجازة، أو من غير إجازة».

وانطلقنا إلى ساحة الاجتماع.. العناصر يتوافدون تباعا، أبصارهم مشدودة إلى (برّاكة) قائد الدورة يتحرقون على جمر الانتظار.

يفتح الباب فجأة، يخرج المعاون معطوب، ويصيح حامد: طلعت الإجازات يا شباب.. وتسري في الصف حركة سريعة، ترتفع الأيدي متخذة وضعية التراصف والترادف. البدلات زاهية خضراء، والأحذية لامعة سوداء تزيدها أناقة تلك الأكف مزهرة بقفازاتها البيضاء، المعطوب يقترب حاملا أوراقه، ومن خلفه قائد الدورة، القلوب ترتجف، والأصوات تخفت. وعلت الوجوه ملامح جازمة صارمة.. يقف المعطوب على بعد خطوات منا، يسدد إلينا نظراته المعهودة، رافعا حاجب إحدى عينيه، مسدلا الحاجب الآخر، وكأن به حول لينطلق صوته مدويا:

انتبه.. ويرتعد الصف بحركة سريعة، كردة فعل على إيعازه.. يفغر فمه على أشده حتى تتدلى لهاته، وتظهر أضراسه المذهبة والمقلوعة صائحا بأعلى صوته:

استاااا عد..وارتفعت الأرجل عاليا بحركة موازية لندائه، ثم هوت بقوة مرتطمة بالأرض، محدثة اصطفاقا شديدا.

كرر صياحه حتى حاز أداؤنا على رضاه.. تقدم نحونا هاجما بخطوات موزونة ويدين متأرجحتين. ضاربا بأخمص قدمه بقوة، مستديرا نحو الخلف.. مقدما الصف بالطريقة المعتادة.

يرد القائد على التحية بالشكلية ذاتها، ثم يصدر بدوره إيعازاته لنا، نستجيب لأوامره كأحسن ما يكون الأداء. نردد وراءه الهتاف المعتاد بقوة وحمية.. وكأننا نسدد سلفا قيمة فاتورة الإجازة.

يرفع يده محييا تحية الانصراف، موعزا إلى معاونه بمتابعة مهمته ثم يمضي مستقلا سيارته خارج المعسكر.

يعاود المعطوب اصطناع الهيئة ذاتها، عندما يريد فرض هيبته علينا، وبحركة سريعة يسحب إحدى اللوائح من بين أوراقه، مرددا أسماءنا موزعة وفق نوبات الحراسة، خلال عطلة العيد.

يستبد بالواقفين الذهول، تسري في حلوقهم مرارة الخيبة وتعصف بهم ريح غاضبة، تثير موجة من القذف والشتم، ويعلو صوت غاضب يحلف بالطلاق ■

أشجان عربية

عبدالرحمن محمد أحمد - مصر

القدس تشدو والخليل ويافا
والمؤمنون وكل حر مهتدي
تركوك يا أقصى تئن وتشكي
ولظى الخرائط حول كل مجاهد
من سوف يهنأ بالنجاة وهل نرى
إلا ذوينا فوق شر موائد
إسلامنا أعراضنا أرجاؤنا
باتوا على فيض الكريم الواحد
أأقول نفسي والحرائق في دمي
وأنا المصاب بكل وغد حاقد
صهيون هذا كيف يخشاه الورى؟
أفنى المواسم كالذليل الشارد
شكر الزمان شموسنا فهل انطوت
راياتنا بيد الجبان القاعد؟
يا أمة التوحيد جل مصابنا
قومي نذود الجرح عن شرف الغد
أعداؤنا أذكى وأقوى إنما
رب السماء عماد كل موحد